جماليةَ التَضمِين فِي الحرف العربيِ
قَراءةَ فِي السياق الأسلوبيِ

د.بغداد بردادي
كليةَ الآداب-ج.سيدي بلعباس

ملخص البحث:

التضمين ظاهرة لغوية تخص حروف المعاني لما تحتويه من معاني متعددة وسمها البعض بحروف التضمين (Homonymique). وهي عبارة عن"وحدات قد ينوب بعضها عن البعض لاشتراكها في المعنى نفسه " [1]. ونعتها (أحمد فتح الله سليمان) "بمصطلح **التناوب**، و"هو إحلال كلمة-قد تكون اسما أو فعلا أو حرفا- محل غيرها مما يناظرها، فتؤدي معناها، وتنوب عنها في السياق " [2].ووسمها (مهدي اسعد عرار) بظاهرة **التعاور** في حروف المعاني لقوله: "فقد يوسم هذا-أعني تعاور حروف المعاني-بأنه **تعاور للمعاني والمباني**، أو تعاور للمعاني دون المباني، أو تعاور للمباني دون المعاني" [3]، واللسانيات الحديثة أقرت بوجود الظاهرة في بعض اللغات كالعربية "التي تعد من اللغات التي تتضمن جميع الحقول الدلالية المرتبطة بالعلاقات المختلفة كالترادف والاشتراك والتضاد والتنافر... كما تعتبر من جهة أخرى، من اللغات الفريدة التي تقول بالقيمة التعبيرية للحرف" [4].

لقد استقر في عرف علماء اللغة أن الحروف العربية تملك خاصيتين، خاصية المبنى وخاصية المعنى، "ورغم أن هذه الحروف تشترك في الصورة، فإنها تختلف في الوظيفة المؤداة بين المبنى والمعنى" [5]. أما الذي يخص هذا المقال، فهو الوقوف على هذه الخاصية الأسلوبية في المعلقات، وذلك لإدراك جمالية الحرف الذي ينوب عن غيره معنى أو يتضمن معنى حرف آخر من حروف المعاني، وقصد تحليل هذه الظاهرة اللغوية والأسلوبية اعتمد البحث في التمثيل على الحرف الأحادي البناء كالباء و اللام في **تعاورهما معنى و مبنى** مع حروف أخرى.

1- تضمين الباء معنى"على" و"في":

1- 1 تضمين الباء معنى"على":

" الباء المفردة: حرف جر لأربعة عشر معنى " [6]، كما أحصاها ابن هشام في مُؤَلفه(مغني اللبيب)، وقد ورد حرف الباء نائبا عن غيره معنى في مواطن كثيرة في ديوان امرئ القيس وفي معلقته تحديدا، و من ذلكه قوله [7]:

وَقَدْ أَغْتَدِي والطَّيرُ في وُكُنَاتهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ [8]

يذكر امرؤ القيس إبكاره "والطير بعد مستقرة على مواقعها التي علتها، على فرس ماض في السير قليل الشعر يقيد الوحوش بسرعة لحاقه إياها " [9] خرج يبغي رحلته الذاتية ، وقد استخدم حرف الباء في(بمنجرد) بدلا من (على) مع أنّ المعنى المقصود هو(خروج الشاعر على ظهر فرسه أي ممتطيا..)إلا أن تقاطع الباء

مع (على) في معنى الاستعلاء [10]، جعل الشاعر يحيد(ينزاح) عن مبنى (على) إلى الباء، ولكن خصوصية (الباء) إفادتها المصاحبة كحرف الجر(مع) يجعلنا نفترض دلالة باء المصاحبة، وهذا أيضا من المعاني التي ينوب فيها حرف الباء عن (مع) معنى ومبنى، "وذكر الباء بدلا من (مع)يبرز معنى الارتباط" [11] بيّن الشاعر وفرسه.

2-1 تضمين الباء معنى"في":

ومثل هذا التوظيف الأسلوبي نجده لدى "طرفة بن العبد" [12] يصف عيني ناقته بمعلقته:

وَعَيْنَانِ كَالماوِيَّتَينِ اسْتَكَنَّتَا بِكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ [13]

يذهب "طرفة" في تشبيه استقرار عيني ناقته في التجويف العظمي للعينين بالكهفين، فوظف (الباء) في (بكهفي) التي بمعنى حرف الجر(في) لاجتماعهما على معنى الظرفية، و لو وضعنا بدل حرف(الباء) حرف (في)، وقلنا:"...استكنّتا في كهفي..."، لما وقع في المعنى تغيير لعلة تقاطع الحرفين في معنى (الظرفية المكانية)ولجواز تعاورهما معنى ومبنى.

هذا ما أقرّه بعض علماء اللغة العربية كابن هشام [14] الذي أقام الحجة على معنى الظرفية بقوله تعالى: "ولقد نصركم الله ببدر"(آل عمران/ 123). إن التجوز في وجود حرف بدل حرف آخر في السياق مظهر من مظاهر سعة اللغة وغناها،

ليس هذا وحسب، بل هو سمة دالة على حرية التعامل الأسلوبي مع اللغة في معاني مفرداتها ومبانيها، وهذا أس من أسس الجمالية التي تنتجها اللغة الأدبية التي لا تحصر "الجمال في تطبيق قواعد الفن السائدة لتوليد المتعة الجمالية بالمقاييس المضبوطة " [15]. وبهذا المنظور تتناول الأسلوبية النص، فتنظر "إليه من جهة وقوعه ضمن ثنائية السُّنة والعدول(أو النمط والانزياح، أو الاستعمال المعياري والاستعمال الأدبي، أو اللغة العادية والكلام الأدبي...) " [16] أو كما قال جون كوهين(اللغة العليا)، فلا مجال حقيقي للإبداع دون تحرير طاقات اللغة وإفساح المجال لها واسعا لتشكيل المعنى بصورة أجمل، "لأن تخليق الجمال ليس سوى مظهر من التحرر الدائب الفعال " [17].

2- تضمين "اللام" معنى "إلى" و"مِن"

2-1تضمين اللام معنى"إلى":

اللام المفردة، حرف من حروف المعاني التي تعدت معانيها العشرين معنى [18]، وللام في المعلقات حضور كثيف وكثرة متميزة، وهذه الكثرة المتميزة تدل على الثراء اللغوي والدلالي عند الشاعر المعلقاتي؛ ثم إن "التناوب بين الحروف يشير إلى مدى القدرة على تطويع الحرف بحيث يأتي بديلا عن حرف آخر دون إخلال بالمعنى المراد " [19].

وقد أكتفي هنا لإيضاح المسألة بضرب مثال أو مثالين من معلقة عنترة بن شداد العبسي، قال الشاعر: [20]

طَوْرًا يجَرَّدُ لِلطِّعَانِ وتَارَةً يَأْوِي إِلَى حَصِدِ القِسِيِّ عَرَمْرَمِ [21]

والمعنى في "يجرّد للطّعان" أي أخرج فرسي من صف الأولياء إلى طعان الأعداء، و بوجود "اللام"، يكون المعنى على لسان الناص:" أنّ تجريدي فرسي في القتال هو لإدراك غاية الطعان في أعدائي"، وعلى تقدير "إلى" يكون المعنى تحديد غاية من غايتين، كما يشير معنى البيت؛ إلا أن السياق العام للبيت يشير إلى معنى إضافي يؤديه حرف "اللام" وهو السبق في الخروج إلى العدى.ولعل هذا ما يفسر تقديم الشاعر لحرف "اللام" على "إلى"، وإن اتفقا في تحديد "نهاية الغاية" [22].

و من ثمّ تتكشف لنا إنزياحية التركيب في توظيف (اللام) بدل (إلى)، فمن مظاهر الانزياح إضمار **خاصية الإيحاء**، وهي من أظهر السمات الدلالية لخاصية التضمين الذي يكسب حرف المعنى المضّمن معنى حرف آخر، يضفي على السياق دلالة جمالية تزيد المعنى إشراقا وروعة.

إن مقصد القصيد ما أراد بوصفه فرسه في البيت محل الشاهد (حرف المعنى "اللام") إلا الاعتزاز بذاته، ولإدراك هذا المعنى بأسلوب أدبي اعتمد في لغته حرف المعنى (اللام)

لتضمنه معنى "نهاية الغاية"، و هذا ما يعادل في سياق البيت معنى(إلى)، ولكن خاصية حرف (اللام) – وهو الحرف الذي وقع عليه **الاختيار** (choix) - بإضافته لمعنى ثانٍ مضمر أو ضمني يفيد دلالة **الفخر بالذات السبّاقة إلى طعان الخصوم**.

وعليه، فإن حرف المعنى (اللام) يعد عنصرا منتجا ضمن سياق البيت معنى ضمنيّا ألا و هو (الاعتزاز) بعد المعنى الصريح (نهاية الغاية)، وتلك ممارسة تقنية يعمد فيها المبدع إلى انتقاء الكلمة(حرف المعنى" اللام") لتدل على دلالتين (صريحة و ضمنية).

2-2 تضنين اللام معنى"من":

وقد اعتد بهذا الأسلوب بعض علماء اللغة مثل (**سابورتا**) وغيره، ويتصل بتصور الأسلوب كإضافة جمالية تتم في بنية شعرية " [23]، و في بيت آخر من المعلقة يقول "عنترة العبسي" [24] واصفا ترجله عن فرسه يريد قتل منازله:

لما رَآني قَدْ نَزَلْتُ أُرِيْدُهُ أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لغَيرِ تَبَسُّمِ

وعلى وجود "اللام" في(لغير تبسم) فالمعنى أن الرجل لما رأى "عنترة العبسي" قد نزل عن فرسه يريد قتله" كشر عن أسنانه غير متبسم، أي لفرط كلوحه من كراهية الموت قلصت

شفتاه عن أسنانه، وليس ذاك لتكلم ولا لتبسم، ولكن من الخوف " [25] ، فدلالة الخوف إضافة تضمنها نسق حرف (اللام) **متجاوزا دلالة ظاهر القول** الذي ينتهي إلى حدود معنى أن الرجل أبدى نواجده لغير الرضا أو التفاؤل، فاللام نفت مثل (مِن) تماما، إلا أن اللام اختيرت لمعناها الإضافي الضمني الذي يقع في خلد المتلقي تخمينا بعد تتبعه للمعنى الضمني، ولا شك أنه ليس إلا الخوف من الموت في مثل هذا الموقف.

إن طبيعة المعنى الضمني واندراجه ضمن حرف المعنى ،"إنما يعود إلى الاختيار choice بوصفه مبدأ أسلوبيا، إذ إن الشاعر يلجأ-ضرورة-غلى اختيار إحدى الكلمات، أي اختيار إحدى الكلمات من ذخيرته اللسانية شريطة أن يحقّق هذا الاختيار سمة أسلوبية " [26].

أما السمة الأسلوبية التي أفادها حرف المعنى هنا، فهي ليس وحسب خروجه إلى معنى حرف الجر(مِن) التعليلية، وإنما دلالته على المعنى الضمني الذي يوحي به الحرف المنتقى من الشاعر لأداء المعنى الضمني(الخوف من الموت). "و هكذا، فإن التضمين وسيلة من أهم وسائل **الإيحاء**، وهو كما يدل عليه اسمه إفادة للمعنى بطريق ضمني غير مصرح به." [27] وصلته بعملية الإبداع تعد من أشد صور الصلات في الخواص الأدبية المشكلة لجمالية النص الأدبي.

ولذلك عُدَّ **الإيحاء** مقوما من أظهر المقومات الجمالية التي تنبه إليها البلاغيون العرب قديما والأسلوبيون حديثا، لما لهذه الخاصية من أثر في نفوس المتلقين، سواء في استحداث الكلمة لمعنى ثانٍ، وما يترتب عليه من انفتاح النص على **التعدد الدلالي و التأويلي**، و هذا ينتج دلالة **المتعة النفسية أو الذهنية في ذات المتلقي**.

الهوامش والإحالات:

---

[1] أحمد كروم، الاستدلال في معاني الحروف، ص97.

[2] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص91.

[3] مهدي أسعد عرار، مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص141.

[4] أحمد كروم، الإستدلال في معاني الحروف، ص97.

[5] م س، ص ن.

[6] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: ح. الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ج1/ 172.

[7] الزوزني/ شرح المعلقات السبع، ص90، وديوانه، إعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، ص53.

[8] المنجرد: الماضي في السير يقيد الوحوش، هيكل: قال ابن دريد: الفرس العظيم الجرم.

[9] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص91.

[10] نحو قوله تعالى: "وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يؤَدِّهِ إِلَيْكَ" آل عمران/ 75. ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج1/ 177.

[11] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص122.

[12] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص128.

[13] الماوية: المرآة، الاستكنان: طلب الكن، الكهف، الغار، الحجاج: العظم المشرف على العين، و الجمع الأحجة. القلت: النقر في الجبل يستنقع فيها الماء، المورد: الماء هنا.

[14] ينظر: مغني اللبيب، ج1/ 176.

[15] صلاح فضل، جماليات الحرية في الشعر، أطلس للنشر والانتاج الاعلامي، القاهرة، ط1، 2005، ص3.

[16] صابر محمود الحباشة، الأسلوبية والتداولية، مدخل لتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2011، ص38.

[17] صلاح فضل، جماليات الحرية في الشعر، ص4.

[18] ينظر: مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، تح: ح. الفاخوري، ج1/ ص348 وما بعدها.. ..

[19] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص121.

[20] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص291.

[21] طور: تارة، الإحصاد: الإحكام، عرمرم: الكثير.

[22] ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1/ 135، أو كما قال في بعض معنى (اللام): والثام: موافقة إلى... "مغني اللبيب، ج1/ 354.

[23] ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص210-211.

[24] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص294.

[25] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص294.

[26] حسن ناظم، البنى الأسلوبية، دراسة في" أنشودة المطر"للسيّاب، ص104.

[27] مسعود بودوخة، دراسات أسلوبية في تفسير الزمخشري، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ط1، 2011، ص149.